سمات التلاقي والتنافي بين الأسلوبية والبلاغة:

د.طاطة بن قرماز

جامعة الشلف. الجزائر

t.benguermaz@univhb-chlef.ez

تاريخ الاستلام: 2017/02/26م

تاريخ القـــبول: 2017/04/05م

الملخص بالعربية:

إن مـن الإشكاليات التي تواجه الباحـث الأسلوبي خلال تصفحه للدراسات الأسلوبية هو إشكالية العلاقة بين الأسلوبيـة والبلاغة، ما الذي يجمعهما؟ أو يفرقهما؟، وما طبيعة العلاقة بينهما، لقد عرض عبد السلام المسدي مجموعة من المفارقات بين البلاغة والأسلوبية، وكلها تشير إلى حبل القطيعة.

تتحدّد العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة بتمتن خيوطها أحيانا وبضعفها أحيانا أخرى، يتبين هذا التأرجح ويتكـشف لنا من حيـث الاختلاف الوظيفي والاختلاف الغائي لكلا العلمـين. ينصهران أحيانا وينفصلان أحيانـا أخرى، مـن حيث مسار الأسلوبية البلاغي التاريخي، ويتقاطعـان في موضوع التحليل وهو الخطاب الأدبي، فبالإضافة إلى استعانة الأسلوبية بأدوات التحليل اللساني وتوخيها المنهج العلمي اللساني الوصفي لـوصف خصائـص النـص المتميزة أسلوبيـا، تستعـير الأسلوبيـة أدوات البلاغة البيانيـة لتكشف وتحدد وتصنـف سماتها أسلوبيا، إذ ما إن تكرس الأسلوبية نفسهـا لتحليل الخطاب الأدبي تغتدي أدوات البلاغة التـي تعتمدها في التحليل إلى أدوات أسلوبيـة. وإن من أهم النقاط التي تميز الأسلوبية عن البلاغة كامنة في أن البلاغـة تهتم بإنتاج الأثر الذي يتلقاه المتلقي مـن خلال عنصر التأثير، بينما تدرس الأسلوبية سبل وآليات التأثير بواسطة تحليل مسبباته وإبراز جمالياته.

الكلمات المفتاحية:

الأسلوبية- البلاغة- العلمية- التحليل اللساني- النقد- السياق الأسلوبي- السمات الأسلوبية.

The Convergence and incompatibility between the Rhetoric and the Stylistics attributes

Tata benguermaz

Chlef, Algeria University

t.benguermaz@univhb-chlef.dz

Abstract:

One of the problems facing the researcher stylistic browse during stylistic studies is problematic relationship between the stylistic and rhetoric, what unites them? And what does not gather?, And what the nature of their relationship, I offer Abdulsalam Masdi set of ironies between rhetoric and stylistic, all indicate rope does not break compatibility between them.

The relation between the stylistics and the rhetoric is sometimes strong andsometimes weak this imbalance is perceived through functional as well as teleological difference the ststylistics and the rhetoric melt together and separate from each other in terms of the historical ath of the stylistic.they cross in the analysis which is known as the literary discours .besides the use of the analysis tools and descriptive scientific research methodology in describing the characteristics borrows the rhetorical tools in order to determine its stylistic attributes.thus , the stylistics analyses the literary discourse using the rhetorical tools which are used in the stylistic analysis .

And that the most important points that characterize the all the stylistic rhetoric lurk in rhetoric that is interested to produce the effect that the recipient receives by influencing element, while considering the stylistic ways and mechanisms of influence by the analysis of its causes and to highlight the aesthetics

keywords:

Criticism- stylistic context the stylistics- rhetoric- scientific- linguistic analysis- stylistic attributes

المسار البلاغي لعلم الأسلوب:

يلحّ الكثير من الدارسين الأسلوبيين الغربيين من أمثال بيير قيرو Pierre Guiraud والدارسين العرب المحدثين من أمثال أحمد درويش وصلاح فضل على ارتباط مصطلح الأسلوب منذ عهد أرسطو بالمصطلح البلاغي[1]؛ إذ بينت الدراسات الحديثة أن البلاغة في العهد اليوناني تمثل معناها في الأسلوب الذي اتصل اتصالا وثيقا بالقول الجيّد والرفيع، تحدّدت البلاغة في شكل قواعد نظرية عامة، ظهرت على نحو خاص في كتابي أرسطو: فن الشعر، وفن الخطابة، وهي مؤلفات أدبية ضخمة أثّرت في التفكير البلاغي الأوربي في العصور الوسطى، لكن القواعد البلاغية تلك كانت تحتاج إلى قواعد تصنيفية لأنها اتصلت ببلاغة المنجز الفعلي للكلام، ومن هذا المنطلق كانت رغبة البلاغة ملحاحة في استخدام الأسلوب الذي أعانها على تصنيف الكلام تصنيفا مستوياتيا يتباين فنيا[2].

عرف البلاغيون في العصور الأوربية الوسطى تقسيمات متفاوتة للأسلوب وكان بيير قيرو قد بسطها بسطا طبقيا، حيث تشكل الأسلوب من طبقات ثلاث، وحسب رأي الدارسين استقى هذا التقسيم أصوله من أعمال الشاعر الروماني فرجيل الشعرية، فكانت مدونته الشعرية الأولى حول الفلاحين عنونها بقصائد ريفية وعدّت نموذجا للأسلوب البسيط، ومدونته الثانية نظّمها حول المزارعين عنونها بقصائد زراعية وعدّت نموذجا للأسلوب المتوسط، أما ملحمته الشهيرة الإلياذة فكانت نموذجا للأسلوب العالي وعلى هذا الأساس شاع عند البلاغيين الأوربيين ما يعرف بدائرة فرجيل[3]، كما عرفت الدائرة باسم دولاب فرجيل؛ إذ تشير حلقات هذا الدولاب من منظورغيروالنقدي إلى الوضع الاجتماعي الذي يتناسب مع كل أسلوب من الأساليب الثلاثة من حيث الأسماء والحيوانات والمساكن والنباتات والتي تتناسب مع أنماط الأساليب الثلاثة: البسيط والمعتدل والعالي أو الخطير[4].

يؤسس فرجيل دولابه على توزيع الأساليب توزيعا مستوياتيا مشاكلا للتقسيم الطبقي الاجتماعي، وتبعا لهذا التصنيف تم توزيع الملفوظات اللسانية، وحتى الصور ومظاهر الطبيعة والحيوانات والنباتات والتي تعدّ حدودا فاصلة تقف عليها الأساليب المصنفة اجتماعيا تحديدا دقيقا، فكلمة سيف أو جواد أو قائد غلاب مثلا، استعمالها منحصر فقط في الأسلوب السامي أو الخطير، لا ينبغي توظيفها إلا في هذا النمط المخصوص، والأمر نفسه بالنسبة إلى الملفوظات: حقل، محراث، ثور، فلاح، مزارع، التي لا تتناسب إلا مع الأسلوب المتوسط، أما بالنسبة إلى لأسلوب البسيط فله معجميته الخاصة به التي لا تتجاوز حيّز الملفوظات التالية: مراعي خضراء، عصا لهش الأغنام، شاة أو كلب[5].

إن الملاحظ على حلقات الدولاب الفرجيلي انحصار الاستخدام اللغوي في أطر ضيقة تتناسب

(1) بيير قيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ص22

(2) ينظر: أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص152.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص152.

(4) ينظر: بييرقيرو، الأسلوبية، ص23.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص24.

مع كل نمط من أنماط الأسلوب الثلاثة، وهو تداول معجمي دقيق الاستعمال لا يقبل الامتزاج بأنماط الأساليب الأخراة، إن بهذا التقسيم الحصري في الاستعمال المعجمي لم تتجاوز البلاغة الكلاسيكية الغربية حدود القوالب والمعايير الجاهزة لأشكال تقنيات التعبير، بيد أن الدراسات المتتبعة لماهية علم الأسلوب أثبتت أن النزعة الطبقية للأسلوب هذه ما فتئت أن اهتزت وزلزلت قواعدها الصارمة استجابة لمتطلبات عصر التغيير والتجديد، فلم يأت التغيير اعتباطيا بل جاء مناسبا على مستويي الفن والأدب الرفيعين[1]، بحيث شكلت هذه النزعة الحداثية الهادية إليها روح العصر منعرجا خطيرا وحديثا في تغيير معنى الأسلوب معنى مغايرا ومخالفا لمعنى الأسلوب الطبقي، وكان رائد هذا الإصلاح لمدلول الأسلوب الاستجدادي الأكاديمي الفرنسي الكونت (Georges Buffon) 1707 / 1788.

حظي تعريف بوفون بشهرة عارمة للأسلوب، وكان ميلاده من منجزه القيّم خطابات في الأسلوب: discours sur le style، وهي أول محاضرة ألقاها الكونت بوفون بتاريخ 1753، حيث استأثر تعريفه للأسلوب بتأثر رواد التنظير الأسلوبي الغربي ورواد الدرس الأسلوبي العربي الحديث تأثيرا بالغا، وقد عرّف الأسلوب قائلا[2]: يمنح هذا الطرح النقدي البوفوني تفهما محدثا وحادثا لماهية الأسلوب، و يغدو الأسلوب تبعا لهذا التوجه الحداثي مجانفا للانتزاع والنقل والسلخ، فمفهوم الأسلوب من منظور بوفون جديد وطارئ يستميز بطابع فرداني أو كما اصطلح عليه بمصطلح الفردانية: la singularité[3]، ويعني الخصوصية المنتهجة من لدن المؤلف من حيث توخيه آليات تعبيرية تسعفه على طرق أفكاره وتشخيصها باستخدام خاص للّغة، ويصير الأسلوب بالمفهوم البوفوني كالبصمة الشخصية للفرد التي لا تقبل المشاكلة ولا التقليد.

يبدو أن الباحث الأسلوبي بوفون انطلق في هذا الموقف من إيمانه بأن الأعمال المتقنة كتابيا هي وحدها التي تخلد وليس الخبرات والاكتشافات، لأن الأخيرة لا تقع في دائرة سلطة الإنسان، والأسلوب هو الإنسان نفسه، لأنه لا يمكن أن يسرق أو ينقل أو يغير، وسوف يظل كاتبه مستحسنا ومقبولا في الأزمنة كلها ،إذا كان أسلوبه رفيعا وجميلا وعاليا[4]، لهذا يعدّ الأسلوب آلة ترجمة روحية لغويا، تُمتثل بفضله العوالم الخفية التي تختلج الذات الباثة، فتقع مصاقبة اللغة للفكر مصاقبةعيانية، إذ تقف اللغة وراء الأسلوب؛ وهو من يظهر وسامتها[5]، يتبدى دور اللغة الحاسم في التعبير كما يسهم الأسلوب في إبراز قيّم التعبير، ومن هنا تتكشف علاقة الملازمة بين اللغة و الأسلوب.

يلحظ المتتبع للسيرورة التاريخية البلاغية لعلم الأسلوب استعانة البلاغة بالأسلوب مستفيدة

(1) ينظر: فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة: خالد محمود جمعة، ص29.

(2) Buffon discours sur le style texte de l édition de l Abbe j. pierre,librairie,ch.Poussielgue, p6

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص6

(4) فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص29.

(5) Michael riffaterre essais de stylistique structurale presentation et traduction de danieldelas Flammarion, p1.

من أدائه الإجرائي المتمثل في تصنيف الكلام وفق مستوياته المختلفة فنّيا؛ إذ يتبين للدارس تعايش البلاغة مع الأسلوب، وهذا التعايش متصل بالمهمّة التي اختص بها الأسلوب من الناحية العملية الوظيفية المتجسدة في تقسيمه للكلام الذي يشكل المحورية الغائية للبلاغة، لكن دور الأسلوب في هذه المرحلة من الزمن (أواخر القرن السابع عشر) ذات النزوع الطبقي كان معياريا، افتقر إلى التوصيفات العلمية، تلك الوصفية التي استمدها من مسايرته للأسلوبية وهي وظيفتة الأصلية المنوطة به.

تعمد الأسلوبية خلال ممارستها الإجرائية للمكونات البنائية لأساليب الخطاب إلى تصنيف الكلام إلى مراتب فنّية متدرجة، تبرز خلال هذا التصنيف معالم الأسلوب وتجلياته الجمالية، ولا تقوم الأسلوبية بهذا الدور الوظيفي الجمالي إلا بفضل الأسلوب الذي يعينها على ترقيم وظيفيتها، فهي تحتكم إليه باعتباره موضوعا لها وعليه يقوم كيانها، وهو لها بمثابة آلة تعيلها على استقراء الخواص الأسلوبية المتعشعشة في زوايا النصوص الأدبية ومتونها، ومن هنا تتضح حاجة الأسلوبية إلى الأسلوب وأنها إليه أمس في فتق شُعب الكلام ذي المستويات العليا، المصطبغة بالصبغة العلمية المزوجة بالفنّية، وكان من الطبيعي أن ترسم الأسلوبية حدود خطاها وخريطة مسارها من هذه الزاوية.

وجدت الأسلوبية نفسها تقتفي الدور ذاته الذي قامت به البلاغة قديما، إلا أنهما تختلفان في الغاية رغم تقاطعهما في الوسيلة، فغاية الأسلوبية حسب رؤى الدارسين توصيف تقنيات التعبير توصيفا علميا في مجال الدراستين: اللغوية والأدبية؛ إذ تتعامل الأسلوبية مع الأسلوب كمفهوم خاص خالص لذاته وكنتاج إبداعي فنّي، بينما غاية البلاغة الكلاسيكية الأوروبية معيارية بحتة، تبحث عن درجات الكلام الفنّي لتحصره في شباك الطبقية.

تعود نشأة الأسلوبية كمصطلح إلى القرن التاسع عشر في عرصة الدراسات اللغوية، وقد أظهرت الدراسات، الأسلوبية الحديثة أن تجدد البلاغة كان مقرونا ببداية هذا القرن باعتبارها إرهاصا حاسما في نشأة علم الأسلوب، وإنّ فعالية مطلب التجدّد راسخة في كونها الانفعالي التأثيري، لذلك فإنّ للأشكال البلاغية دورا حاسما في ظهور هذا العلم الحداثي الداعية إليه روح العصر، أرخ فيلي ساندرس Willy sandres لنشأة مصطلح الأسلوبية قائلا: «...إن الأسلوبية بمفهومها الجديد وبوصفها مصطلحا مستقلا لم يَرَى النور في اللغات الأوروبية إلا منذ القرن التاسع عشر... فحتى هذا التاريخ كانت معايير البلاغة هي المهيمنة وكانت تؤدي الوظيفة نفسها التي تقوم بها الأسلوبية إلى درجة جاز فيها عد البلاغة السلف الشرعي للأسلوبية المعيارية...»[1].

تحدّد العلاقة بين البلاغة والأسلوبية ضمن علاقة اندراج، تندرج فيها الأسلوبية ضمن البلاغة، يتضح هذا المنزع من خلال استخدام المؤلفين تلوينات أسلوبية مخصوصة في التعبيرعن أفكارهم تحقيقا للأسلوب الراقي؛ إذ عمد

---

(1) فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص94.

المؤلفون إلى تنميق أساليبهم من خلال الصور البيانية والأشكال البلاغية التي تستمد من أغوار عمق البلاغة.

إن الأشكال البلاغية من المنظور الأسلوبي ليست سوى وسائل لغوية يستطيع المنشئ بتوظيفها أن يحقق بها أشكالا تعبيرية ذات الانبصام الأسلوبي، من مثل أسلوب التكرار وأسلوب الحذف وأسلوب التنكير، أسلوب العدول والانسجام في النّصّ، تعدّ هذه المعطيات البنائية دعامات أساسية لتشكيل الأسلوب الرفيع والمؤثر فتعمل على استثارة وعي الذّات المتلقية ومن ثمّة استمالتها، تعود رغبة الإنسان في تحقيق الكلام الهادف والمؤثر وفق صياغة لغته صياغة جميلة ومؤثرة حسب رأي فيلي[1].

أشاد صلاح فضل بأهمية الدور البارز الذي مارسته أشكال البلاغة الأوربية بأنواعها في تحقيق أسلوب متميز، قائلا: «وقد تزايد الاهتمام بالأشكال البلاغية من خلال العصر الكلاسيكي بحثا عن الأسلوب النبيل»[2]، حيث نال استعمال الصور البلاغية أهمية بالغة في العصر الكلاسيكي، ترافق هذا الاهتمام مع منزع البحث عن أسلوب راق[3]، لذلك استخدمت كل الآليات والسبل لتحقيقه بغاية رفع مستواه الإبداعي، فالتفاعلات البنائية التي تستجيب لها الأساليب التعبيرية عاملة على ذلك، إن الصور «...البيانية والأشكال البلاغية من المنظور الأسلوبي ليست سوى أدوات لغوية يستطيع المؤلّف باستخدامها أن يحقّق ملامح التضاد والتناسب في النّصّ مستثيرا عالما خياليا جديدا...»[4].

وحسب رأي صلاح فضل فإن بداية القرن الثامن عشر هو ميلاد لحركة جديدة ومضاءة في الغرب لتفجير الأطر البلاغية التقليدية، المتمثلة في الإبقاء على المفاهيم والنماذج المطابقة لسلم قيم البلاغة، فإذا أراد الشاعر الغنائي أن يعبر عن حالته العاطفية وتلويناته الوجدانية لا بد أن يرسم نموذجا مثاليا ومقاما جماعيا عن تلك العاطفة، يستوجب منه هذا السلوك الشعري إخماد عواطفه، و بمعنى أدق على الشاعر أن يتكلم بلسان الجماعة[5]، والملاحظ على هذه الحركة أنها تقيّد من حركة الشاعر وحريته الفنية، تجعله يدور في فلك الجماعة وفي حيّز شروطها القاسية لأن الشاعر يحتاج إلى فضاء أرحب وإلى حرية أكبر حتى تتأتى شاعريته، فهو مجبول على مناشدة الاتساع والرحابة وعلى نبذ المحدودية.

ظهرت بوادر نشأة علم الأسلوب بعد تدهور البلاغة التاريخية في ضوء تلك الأطر فلقد: «فقدت البلاغة التاريخية أهميتها ولم تصبح لها أية قيمة باعتبارها مجموعة من التصورات والمفاهيم التقنينية المعيارية... تعد لها فاعلية القواعد التي كانت تفرض بها وجودها فإنها قد ذابت و انحلت في علم الأسلوب الحديث بشكل أو بآخر... من حيث كونها جهدا مخلصا للاقتراب من مناطق القوة في التعبير والتأثير ومكوناتها

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص95

(2) ينظر صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 196.

(3) ينظر بيير جيرو، الأسلوبية، ص27.

(4) صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه واجراءاته، ص204.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص198.

اللغوية والجمالية»[1]، يفضي هذا الرأي بنا إلى معرفة الكيفيات والمبررات التي رسّخت جذور علم الأسلوب في البلاغة القديمة، حيث أسهمت العناية بالزخاريف اللغوية والتلوينات التعبيرية إلى ظهور علمين اختص العلم الأول بالاهتمام بالصيغ الأسلوبية للتعبير اللغوي، أما العلم الثاني فقد اهتم بالصور البلاغية ورسم آليات وسبل الإفادة من هذه الصور[2]، ومن هنا تجلت الإرهاصات الأولى لظهور علم الأسلوب الذي شبّ في جسر البلاغة، باعتبارها علما يهدف إلى تحقيق القول الرفيع، وهذا لا يتأتى إلا بالاحتكام إلى الأسلوب، وهذه المزية راسخة في كلّ نزوع أدبي، فالمنشئ يتحرى من منطلق الإجادة اللّغوية بلوغ الأسباب اللاّئقة بذيوع خطابه في المتلقين، وكلّ مزية أسلوبية تغدو عندئذ وسيلة إغوائية، إغرائية.

نعتقد بأنّ كلّ منشئ يحمل جديا خطاطة توزيع نصه ونسوج كلامه، هو يحدسها قبل غيره من المتلقين، لذلك فإنّ انتقال الأدبية العربية من الشفوية المجردة من التشكيل النّصي ودخولها في حيّز ممارسة البناء أكسب الأدباء ثقافة تشكيلية لا يمكن تجاهل آثارها في استكمال ثقافة الأدبية العربية لذلك تغتدي البلاغة فنّا لبناء وإنتاج النصوص وغايتها التأثير والتعليم، فعرفت البلاغة بطبيعتها النسقية لأن «... وظيفتها الأولى بقيت مع ذلك واحدة، وهي إنتاج نصوص حسب قواعد فنّ معين»[3].

يرى هنريش[4] أن البلاغة خضعت لمتغيرات وظيفية من حيث إنّ مفهومها الأول ينحصر في إنتاج النصوص، أما المفهوم العلمي الحديث للبلاغة فإنه يتنافى تماما مع وظيفتها الأولى ويخالفه؛ إذ لم تعد غاية البلاغة العلمية إنتاج النصوص بل صارت تعتكف على تحليل مضامين النصوص وعلى هذا الأساس تضمنت أمرين: الأول متعلق بضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا لدراسة النصوص الأدبية وغير الأدبية، والأمر الثاني فمتعلق بالفكرة المتضمنة والمتمثلة في كون كل نص هو بشكل ما بلاغة لأنه يحوز على وظيفة تأثيرية، وعلى هذا الأساس الوظيفي والغائي اغتدت البلاغة منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير[5]، إن طرح هنريش الأسلوبي، يثبت تغير المكون الغائي للبلاغة في انتقالها من وظيفة الاهتمام بالبناء النصي إلى الاهتمام بوظيفة التحليل النصي متوسلة بعامل التأثير، وهذا هو الدور الذي تتكفل به الأسلوبية وتختص به حاليا، منافحة عنه وبشدّة.

ناقش هنريش بليث فكرة انتقال البلاغة في مساعيها وغاياتها وتغير منزعها المعياري؛ إذ يعدّ تغيرها ذلك مؤشرا مرهصا لنشأة الأسلوبية من جذع البلاغة، فبعد أن كانت تؤدي دورا تعليميا معياريا انتقلت إلى الاهتمام والعناية بتحليل النصوص في خطوة تعد إرهاصا أوليا لظهور الأسلوبية في خطوطها العريضة، لأن هذا الدور يتناسب مع دور الأسلوبية ويتنافى مع مهمة البلاغة التي طالما انشغلت بتشكيل النص وبالبحث

(1) المرجع نفسه، ص202.
(2) ينظر هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص95.
(3) المرجع نفسه، ص23.
(4) ينظر: المرجع نفسه، ص24.
(5) ينظر: المرجع نفسه، ص24.

عن طرائق سبكه وسبل إنتاجه، من خلال عنايتها بشتى الصور البلاغية المُؤنقة والمُدبجة لأساليب الخطاب الأدبي.

بادر فيلي إلى التأريخ لوظيفة الأسلوبية انطلاقا من المفهوم الجديد، قائلا: «إن الأسلوبية بمفهومها الجديد وبوصفها مصطلحا مستقلا لم يرى النور في اللغات الأوروبية إلا منذ القرن التاسع عشر...فحتى هذا التاريخ كانت معايير البلاغة هي المهيمنة وكانت تؤدي الوظيفة نفسها التي تقوم بها الأسلوبية إلى درجة جاز فيها عد البلاغة السلف الشرعي للأسلوبية المعيارية»[1]، يفضي طرح فيلي ساندرس النقدي إلى أن القرن التاسع عشر هو الفترة الزمنية الفاصلة والمحددة لظهور الأسلوبية، وهي فترة تنصلها وتبرمها عن البلاغة تبرما تدريجيا، لأنها حتى هذه الفترة كانت علاقة الأسلوبية بالبلاغة علاقة تماه من حيث الوظيفة، حتى نُعتت الأسلوبية بالأسلوبية المعيارية حسب الطرح السندرسي.

بدأ الاهتمام بالتركيب اللّغوي من منطلق الوظيفة الأسلوبية، ويعتبر ذلك استكشافا جديدا لنَفَس بلاغي متجدّد، فمنذ بداية القرن التاسع عشر كان النزوع البلاغي الاستجدادي عاملا بارزا في نهوض التفكير الأسلوبي، لذلك وانطلاقا من هذا التحسّس نُظر إلى الأسلوبية على أنّها تسمية حداثية لتفكير لغوي عربي قديم، وعلى أن البلاغة هي أسلوبية القدماء[2].

العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة تواصل أم قطيعة؟

إن من الإشكاليات الملحاحة التي تجابه الدارس أثناء جولانه في عرصات الدرس الأسلوبي هي إشكالية العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، فما الذي يجمعهما أو يُفَرقهما، وما طبيعة العلاقة بينهما؟، إن مثل هذه التساؤلات تفرض نفسها وبشكل عارم لتعترض طريق دارس الأسلوبية وتثير حيرته فتتناسل أسئلته، تناسلا، فقد تبدو تلك التساؤلات بسيطة، إلا أن بساطتها تزيد من إضعاف فرص العثور على أجوبة قطعية، وهذا ما جعلنا نجتهد بتخمينات من شأنها أن تبرز علاقتي الامتداد والتنافي بين العلمين، ولعلها تقارب الصورة فتنجلي تلك الضبابية ببعض الحجج نحسبها منطقية دلائلية.

يعدّ الباحث الأسلوبي هنريش بليث من الباحثين الغربيين الذين اهتموا بدراسة جدلية الصلة بين البلاغة والأسلوبية، من خلال مؤلفه الشهير: (البلاغة والأسلوبية)، حاول في مقدمته عرض أسباب تأرجح البلاغة والأسلوبية بين حبلي التواصل والقطيعة، قائلا: «تقيم البلاغة والأسلوبية منذ زمن علاقات وطيدة: تتقلص الأسلوبية أحيانا حتى لا تغدو أن تكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي وتنفصل أحيانا عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة لكنها باعتبارها بلاغة مختزلة»[3]، يفهم من هذا الطرح أنه تقوم بين البلاغة والأسلوبية علاقة تشتد تارة وتلين أخراة، لكن ما هو ثابت في أصل

(1) فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص94.

(2) ينظر بيير قيرو، الأسلوبية، ص27.

(3) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص19.

المسار التاريخي للبلاغة حاجتها إلى الأسلوبية وحاجة الأسلوبية إليها وعدم استقلالية علم عن الآخر وقيامه بمعزل عنه، بحيث تستند البلاغة إلى الأسلوبية محتكمة إلى الأسلوب الذي هو موضوع دراستها، فالأسلوب هو المادة التي تشتغل بها الأسلوبية وهو مصدرها الأوحد لانبجاسها وترسيخ وظيفتها.

لذلك يكفل الأسلوب للبلاغة كل التسهيلات في معالجة النصوص من حيث تناول البلاغة الأساليب الأدبية والحكم عليها، أما حاجة الأسلوبية إلى البلاغة فكامنة في اعتماد الأسلوبية أداوت البلاغة التي تصيّرها إلى أدوات أسلوبية تتخذها متكأ لمعرفة موضع الدفين من سمات النص الأسلوبية.

يشاطر عبد السلام المسدي ويوافق المنزع التقديري الهنريشي المحدد لصلة البلاغة بالأسلوب حين قال: «...فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة أيضا...»[1]، يُسهم العلمان: علم البلاغة وعلم الأسلوب في الاشتغال ضمن إطار الظاهرة الأدبية[2].

غير أنّ ثمّة توجّها نقديا يحصر الفارق الوظيفي بين البلاغة والأسلوبية في المؤدّى المنهجي، لذلك فإنّ التقييم الأسلوبي للظواهر البلاغية هو ارتقاء منهجي للرؤية النقدية تسعى إلى الكشف عن القيمة البنيوية الفنية التي تقرأ اللّغة قراءة جمالية[3]، فالبلاغة الجديدة متصورة كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية[4].

نحا عبد السلام المسدي[5]، وجهة من البحث الأسلوبي قارب فيها جملة من المفارقات بين العلمين: الأسلوبية والبلاغة، إن الغاية من بسطها ليس الوقوف على مقومات القطيعة فحسب وإنما الإمعان في غياب مقومات التواصل والوقوف عليها لاحقا.

نوجز تلك الفروق فيما يلي:

- البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ويرمي إلى تعليم مادته وموضوعه بلاغة البيان.
- الأسلوبية تنفي عن نفسها كل معيارية وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية بالمدح أو التهجين ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة.
- البلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة.
- تتحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية.
- البلاغة ترمي إلى خلق الإبداع بوصياها التقييمية.
- تسعى الأسلوبية إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.
- ترغب الأسلوبية عن كل مقياس ما قبلي وترفض مبدأ الفصل بين الدال والمدلول.

(1) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص44.
(2) ينظر: فتح اللّه أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص30.
(3) ينظر: رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، ص50.
(4) ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص199.
(5) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص44.

– تعتمد البلاغة فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني.

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الفوارق الوظيفية تنطبق حسب تصورنا على العلاقة بين الأسلوبية باعتبارها منهجا لسانيا علميا وصفيا وبين البلاغة الكلاسيكية الأوربية، وقد تُستثنى البلاغة العربية من هذه العلاقة ومن تلك الفوارق والنعوت، لأن البلاغة العربية تعزف عن التقييم والتعيير، فهي تقوم فيما تقوم عليه على الكلام المؤثر الذي يحسن موقعه من النفس، فتهتز أريحية وانتشاء، لأنه يأتي ملتفا ببردة الندرة المخلوطة بماء الغرابة والتعجيب، وهي جميعها محطات إبداعية يستسيغها القارئ استظرافا واستطرافا فيتفاعل معها إيلاعا بها، وكان الجاحظ من البلاغيين الأوائل السباقين إلى الإشارة لبلاغة الإغراب ومستتبعاتها الابداعية بقوله: « لأنّ الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين... والناس موكولون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد»[1]، ومعنى هذا أن حصول الإبداع الأدبي في تفكير الجاحظ البلاغي مرهون ببلاغة التعجيب بعد أن يتّسم بمسوغي الإغراب ثمّ الإطراف القمينين بأسر المتلقي وإيقاعه في شباك الغواية.

وبالرجوع إلى المفارقتين الأخيرتين المتنازعتين بين الأسلوبية والبلاغة يذهب المسدي في رؤيته النقدية المفضية إلى أن الأسلوبية لا تقبل فصل قالب العمل الأدبي عن محتواه، فهي تتناول الخطاب كلا متكاملا غير مجزأ «وتختلف نظرة الأسلوبية إلى النص عن مثيلتها، فالأسلوبية ترى أن النص كيان لغوي واحد بدواله ومدلولاته ولا مجال للفصل بينهما أو بحث أحد الجانبين دون الآخر من حيث أن أولها مفض إلى الآخر، أما البلاغة فقد قامت على ثنائية الأثر الأدبي بمعنى الفصل بين الشكل والمضمون بل في نطاق الشكل تميز البلاغة بين فصاحة المفرد وفصاحة الكلام وفصاحة المتكلم»[2]، وعليه تفصل البلاغة الشكل التعبيري عن مضمونه، حيث تخالفها الأسلوبية وتتنافى معها في منهجية تحليل النصوص الأدبية من حيث دراسة دوالها ومدلولاتها ككل متكامل غير مجزأ، وينتج عن ذلك أن الأسلوبية تستقي قيمتها من حيث تدرس النص الأدبي ككل مكون من مجموعة كبيرة من العلاقات الداخلية التي لا تقبل الفصل ولا يكون لمكونات النص أي فائدة دلالية أو قيمة جمالية إلا في عمل علاقاته المنتظمة انتظاما تراتبيا.

خلص عبد السلام المسدي[3]، إلى نتيجة نقدية تكاد تكون قطعية في البت في مسألة الفصل بين البلاغة والأسلوبية، لا تقبل التنازع فيها حسب تصوره حيث توصل إلى أنّ: «الإبستيمية في مقارعة البلاغة بالأسلوبية تتلخص في أن منحى البلاغة متعال بينما تتجه الأسلوبية اتجاها اختباريا معنى ذلك أن المحرك للتفكير البلاغي قديما يتسم بتصور (ما هيّ)

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص65.

(2) فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص32.

(3) المرجع نفسه، ص45.

بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها بينما يتسم التفكير الأسلوبي بالتصور الوجودي الذي بمقتضاه لا تتحدد للأشياء ماهيتها إلا من خلال وجودها»، والمتأمل في طرح المسدي الابستيمي يستشف الفارق الوظيفي الكامن في طبيعة تعامل كل من البلاغة والأسلوبية مع النص، يلجأ المسدي إلى استخدام لفظة إختباريا وهي إشارة متكشفة المعالم للبعد المنهجي الاختباري للتفكير الأسلوبي الذي يعتمد إثبات حضور المتلقي في العملية الإبلاغية.

تتلخص المفارقة الوظيفية بين البلاغة والأسلوبية في أن وجود البلاغة يسبق وجود النص يظهر ذلك ويتبدى في جملة المقومات المعيارية التي تشترط البلاغة توافرها في اكتمال ونضجها العمل الأدبي نضجا فنيا، والوصول به إلى مستوى درجات الإبداع القصوى، تلج البلاغة في النص متوسلة بعدّة معيارية تعينها على الحكم عليه بالإيجاب أو بالسلب، وفق معايير جاهزة تسبق ميلاد النص وظهوره تتمثل تلك المعايير في شروط بلاغية جاهزة ينبغي على المنشئ أن يعتد بها ويسلكها لصناعة الخطاب وتحبير نسوجه التركيبية.

تملي البلاغة شروطها وتشدّد على النّاص راقما[1] كان أو شفويا الأخذ بها وضرورة الالتزام بها وتُدخلها في حساب باب صناعة الكلام، حيث يتمخض عن عدم استخدامها اختلال في البنى الأساسية المشكلة للعمل الأدبي من جهة، والحكم بالسلب على العمل الأدبي من جهة أخراة من قبل البلاغة، بيد أن عمل الأسلوبية يبدأ بشكل متواز مع إنتاج النص، فميلادها من ميلاد النص و لا تسبقه في الوجود؛ إذ يبدأ دور الأسلوبية إذن، بعد تواجد النص مستفيدة من شروط البلاغة، تتناولها من منطلق جمالي، فيشكل استخدامها مخالفة تعبيرية، تتحقق بموجبها إجراءات أسلوبية، وهذا ما يعرف بـ: السياق الأسلوبي، وهو أهمّ معيار اعتمده Michael Riffaterre في التحليل الأسلوبي البنيوي اشترطه في حدوث القيمة الأسلوبية وبزوغها.

يستميز السياق الأسلوبي من وجهة نظر ريفاتر الأسلوبية بأنه ليس مركبا لأنه لا يعتمد على سياق من الأفعال التي تحدّ من وضع عدة مفاهيم لمصطلح واحد، وإنما يرتكز على الجانب اللساني من خلال تلك الوحدة التي تفصل المعنى عن الآخر من تموقعه الرئيسي في التركيب، لذلك تكمن القيمة الأسلوبية للسياق في نظام العلاقات الموجودة بين الوحدات اللسانية بحيث لا يكون أي أثر أسلوبي إلا من خلال ما ينتجه تركيب الوحدات، يتحدّد المنبه الأسلوبي من التناقض الحاصل بين عنصرين لسانيين نتيجة تداخل طارئ في السياق الأسلوبي، وقد عرّفه م. ريفاتير بقوله:

(le contexte stylistique est un pattern linguistique rompu par un élément qui est imprévisible et le contraste résultant de cette interférence est le stimulus stylistique)[2]

ترجم حميد لحميداني جزءا من كتاب (essais de stylistique structurale) للناقد الأسلوب

(1) ينظر: عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص246.

(2) Michael Riffaterre, essais de stylistique structural, p57

يريفاتير و كان عنوان الجزء المترجم منه: critères pour l'analyse du style[1]، (معايير تحليل الأسلوب)، حيث وردت ترجمةالسياق الأسلوبي فجاءت على النحو الآتي «... هو نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقّع والتضاد الناتج عن هذه المخالفة هم المنبه الأسلوبي»[2]، من شأن هذا السياق أن يحدث مفارقة فيتشكل إجراء أسلوبي صادم للقارئ ناتج عن مخالفة النسيج الطبيعي للغة.

إن المتمعن في جملة الفروقات التي ساقها عبد السلام المسدي بين البلاغة والأسلوبية بغاية التمعين يلفي أنه أقامها بناء على المفهوم الاصطلاحي أو على المؤدّى الوظيفي لكل من البلاغة والأسلوبية، بيد أن الفارق الجوهري بين البلاغة والأسلوبية من منظور فيلي ساندرس يكمن في المفهوم اللغوي بين العلمين، فالأسلوبية مشتقة من مصطلح الأسلوب le style الذي اشتق من le stylo وهو القلم الذي يعد أداة من أدوات الكتابة، إلا أن عبد الملك مرتاض[3] يرى أن الإطلاق العربي أدلّ من حيث المفهوم اللغوي للأسلوب الذي جاء به ابن منظور حيث أن الأصل في الأسلوب السطر من النخل والطريق الممتد والمذهب والفنّ، لأن الأسلوب يمضي على سنن واحد، والسطر من النخيل يحيل على الاستقامة والاتزان في مدلول الأسلوب، وقد برر عبد الملك مرتاض استنكاره لعدم تلاؤم المفهوم اللغوي لكلمة الأسلوب لدى الدارسين الغربيين بقوله: « ...ذلك بأن أصل المعنى إنما يقوم على تحديد الطريقة التي يتم بها أو على حدوث الشيء لا الوسيلة في حدّ ذاتها التي تتخذ لإنجاز ذلك الشيء»[4].

تتكشف خيوط المفارقة بين الأسلوبية والبلاغة من منظور فيلي ساندرس من حيث المادة المعتمدة إذ «...يتبين اعتماد هذا العلم (أي الأسلوبية) على اللغة المكتوبة فـ: STILUS في اللاتينية تعني فن الكتابة واستناد البلاغة بوصفها فن الكلام إلى اللغة المنطوقة باعتبارها فن الفصاحة»[5]، يتبين للدارس جليا أن الفرق بين البلاغة والأسلوبية قديم قدم نشأة العلمين مرد ذلك إلى طبيعة العلمين في أدائهما الوظيفي المنوط بهما قديما، فوظيفة الأسلوبية من المنظور السندريسي متمحورة في مادتها ألا وهي فنّ الكتابة وهذا انطلاقا من اشتقاق أصل كلمة الأسلوبية الذي يعود إلى أحد وسائل الكتابة، أما البلاغة فمادتها تكمن في فن الكلام وقيام البلاغة من قيام الفصاحة، والملاحظ على العلمين اشتراكهما في مصطلح الفن.

تُظهر لفظة فن المشتركة بين دلالة علمي البلاغة والأسلوبية تنافرا وانسجاما بارزا في آن واحد من حيث الطريقة التي تنتهج للكتابة بالنسبة إلى الأسلوبية، أما بالنسبة إلى البلاغة ففنيتها مشروطة باللغة المشفوهة من جهة الفصاحة التي تعدّ مقوّما هامّا في قيام علم البلاغة.

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص27

(2) ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، ص56.

(3) ينظر: عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص88.

(4) المرجع نفسه، ص88.

(5) فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص94.

ينحـو بيير غيرو وجهة نقدية مغايرة بالقياس إلى وجهـة فيلـي ساندرس النقديـة؛ إذ يرى بيير قـيرو أن البلاغـة في خطوطهـا العريـضة تعـد «... فنّا للكتابة وفنّا للتأليف في الوقت نفسه، إنها فـن لغـوي وفن أدبـي وهاتان سمتـان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة»[1]، وهاتان سمتان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة فلطالما كان الاهتمام بالأقاويل الجيّدة والمؤثرة من أوليات الاهتمام لدى الإنسان منذ زمن بعيد، والرغبة كانت قوية لديه في تحقيق الكلام الهادف والمؤثـر، وفق صياغة لغته صياغة جميلة ومؤثـرة؛ إذ أدى الاهتمام حسب رأي فيلي ساندرس بالزخاريف اللغوية والكيفيات التعبيرية إلى ظهور علمين، اختص الأول بالاهتمام بالصيغ الأسلوبية للتعبـير اللغوي، أما العلم الثاني فاهتم بالـصور البلاغية ورسم آليـات وسبل الإفادة من هذه الصور[2]، ومن هنا تجلت الإرهاصات الأولى لظهور علم الأسلوب الـذي نشأ في مجال البلاغة الغربية.

المستخلـص ممّا سلـف تداولـه أنّ الأسلوبية في حقيقـة مقاصدها الفنية تتجافـى عن إصدار الأحـكام العامـة المطلقة وتتحاشهـا، لكنها تجنح إلى تطبيـق المنهـج العلمـي الوصفـي في تحليـل النـصوص؛ إذ تـدرس تحول النـص وانتقاله من صورة الإخبـار إلى صورة ومستوى أقرب بل موازٍ للتشكيل الجمالي التأثيري.

بسط عبد السلام المسدي جملة من المفارقات الوظيفيـة في المـؤدى المنهجـي بـين البلاغـة والأسلوبيـة، وهـي تعـبر جميعها عـن القطيعة لا عن حبـل التواصل الـذي أشار إليـه عبد السلام المـسدي آنفـا، و يبـدو أن الباحـث قـد غفل عن الإشارة إلى علاقـة الامتـداد المتمثلـة في حبـل التـواصل المشار إليـه سابقا، وبعبـارة أدق بسط عبـد الـسلام المـسدي جملة مـن المفارقـات بين العلمـين، ولم يتطـرق إلى الوشائـج التـي تربـط بينهمـا، فالأسلوبيـة والبلاغـة علمـان لا يخلـو أمرهمـا التفهمـي من إحدى الفرضيـات التالية: أولا إما أن تتواجدا، ثانيـا: إما أن تتطابقا، ثالثا: إمـا أن تنفي إحداهمـا الأخـرى، فالتواجد يعني التساوق تاريخيا ومسايرة العلمين بعضهما لبعض بـضرب من الملاحمة والتعالق في انبثاق الأسلوبية عـن البلاغـة بعـد تقلبـات ومخـاضات تاريخية في النـشأة، أما التطابـق فمتمثـل في اشتراكهما في المـادة القابلـة للتحليـل الجوهـري للخطـاب الأدبي، وفي مهمـة تحليل أساليب التعبير، لديهما مهمـة البحث والمدارسة نفسهـا عن الكلام المؤثر وتحليل مكونـات الخطاب الأدبـي واستنباط منه مـا هو فنـي ومؤثر، إلا أنه من ناحيـة أخراة تبرز بين العلمـين مفارقة وظيفية تتشخـص في مسألة إطـلاق حكم القيمـة التـي تنافح عنهـا البلاغة وتتحاشها الأسلوبية.

أمـا النفـي فمرهون باختلافهمـا في الطريقة والمنهـج المسلوك في تشريح النصوص؛ إذ تستعير الأسلوبية من البلاغـة الأدوات البيانية وتتوسلها للـوصول إلى غائيـة الكـشف عن ملامـح النص الأسلوبيـة مـن مثـل أساليـب التنكـير، التكرار، الإيجـاز، التضاد أو الطبـاق أو العدول والانزياح،

(1) بيير غيرو، الأسلوبية، ص27.
(2) ينظر: فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص95.

فـأدوات الأسلوبيـة هـي أدوات بلاغيـة بالدرجة الأولى، كمـا أن الأسلوبية تستقـي وسائل التحليل من علم اللسانيات كي تصطبغ بطابع العلمية.

تتجلـى علاقـة التنـاغم من حيـث خصوصية الأهداف والمرامـي لكل من البلاغـة والأسلوبية، فالبلاغـة تطمـح إلى تحليـل الخطـاب الأدبـي وتقييمـه بقواعد مسبقـة وجاهـزة والحكم عليه بالابتـذال أو الإجادة أو بالإحسان أو الإساءة، أما الأسلوبية فتتوخى المنهج العلمي الوصفي اللساني وتتكـئ عليه في تحليل المضامـين التعبيرية للنص الأدبي، فتعمل على استظهار وإبراز الخبايا الفنية للأثـر الأدبـي باستخدامهـا للأسلوب الـذي يعدّ وصفـا للخطاب الأدبي، فهـو الأدق وسيلة والأشد تشخيصا لمكوناته البنائيـة، ويتم تسجيل مساحة الفُـرادة والعبقرية للمتكلم وفق الطرائق المسلوكة في التعبير عن الفكـرة، فتحقيق القيمة الأسلوبية منوط بوجود العديد مـن السبل التعبيرية للتعبير والإفصاح عن الفكرة نفسها من منظور بيير قيرو وهـذا ما اصطلح عليـه بالمتغـيّرات الأسلوبية[1]، والتي تـشكل كل طريقة منهـا طريقة مخصوصة للتعبـير عن المفهـوم ذاته والفكـرة نفسها، لذلك تقف الأسلوبية عند حدود جماليات القول وغائيتها تجاوز حدّ الإبـلاغ إلى الإثارة والتأثير في المتلقي، لذلك يمكن نعت العلاقة بـين الأسلوبية والبلاغة مـن ناحيـة بعلاقـة اندمـاج واندراج وتضمـن، وبعلاقة قطيعة وتناف من ناحية أخراة.

يتحـدّد الأسلوب المائـز فنيا بتوافـق عمليتين متواليتـين في الزمـن ومتطابقتـين في الوظيفـة، تداولهمـا النقـد الأدبي الحديث وهمـا ظاهرتان تتحقق بإسقاطهما التناغمي شعرية الشعر وأدبية الأدب، يتلخـص هـذان الإجـراءان الأسلوبيـان في محـوري: الاختيار والتركيـب أي تطابق محور الاختيار على محـور الاستبدال مما يشكل تناسبا بين العلاقات الاستبدالية والعلاقة الركنية[2].

خلـص عبد السلام المـسدي إلى نتيجة بحثية قطعيـة قوامها أن الأسلوبية «منهج علمي في طرق الأسلـوب الأدبـي وهـي نظرية شموليـة من حيث تقـوم بضبـط وتحديد الطـرق العلميـة لتحليلية اختباريـا»[3]، تتـسم الأسلوبيـة إذن، وفـق رؤية المـسدي النقدية برؤيـة شموليـة، فـكل المناهج النقدية تعتمد الأسلوب الذي هو موضوع الدراسة الأسلوبيـة، والـذي يعـدّ معيـارا علميـا لتشريـح وتصنيـف مضامين النـصوص الأدبيـة تشريحا دقيقـا، وعليه تفتـدي الأسلوبيـة منبعا تغرف من معينـه كل نظريـة تستلزم الاحتـكام إلى مقياس الأسلـوب[4]، باعتبـاره المظهـر الفنـي والـشكل الخارجي للعمل الأدبي الإبداعي.

تستخـدم الأسلوبيـة أدوات تحليلية تستعيرها مـن المخزون البلاغـي في كشف أساليـب الأدباء المبدعـين متوخيـة الـوصف العلمـي للأساليـب، وليست تعني العلمية هنـا معنى الدقة والصرامة التـي تستوجبهـا العلـوم التجريبية، وإنمـا نعني بالعلميـة الدقـة في تحليـل واستنبـاط وتمحيص الظاهرة الأدبية تمحيصا دقيقا.

(1) ينظر بيير قيرو، الأسلوبية، ص52.

(2) ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص76.

(3) المرجع نفسه، ص87.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص87

تلج البلاغة في ثنايا الخطاب الأدبي متغلغلة في زواياه من حيث استخدامها للأسلوب والاستعانة به لتحليل النصوص الأدبية ثم الحكم على هذه الأساليب واستخلاص المحمود منها والمذموم، وبالإضافة إلى عامل الملاءمة بين الأسلوب وموضوعه، تعد الأسلوبية منهجا نقديا ظريفا[1] لتحليل النصوص الأدبية تحليلا لسانيا علميا وصفيا مقرونا بالإحصاء بخلاف البلاغة التي تعد علما لدراسة التعبير اللغوي دراسة تقويمية معيارية تعليمية حسب اطلاعنا.

تعتمد البلاغة مراعاة مطابقة المقال لمقتضى الحال وفي هذا العنصر تحديدا تتلاقى البلاغة مع الأسلوبية من جانب اهتمام الأسلوبية بمراعاة ملاءمة الأسلوب لموضوعه، ويعد أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها التفكير الابستيمي المحدد لماهية الأسلوب وتشكيله، حيث اعتبر جورج موليينه تعريف ريتشلي Richelet تعريفا مكتملا و ناضجا، لأنه عرّف الأسلوب بالطريقة «...التي يتكلم بها كل شخص. لذلك هناك من الأساليب بقدر ما هنالك من أشخاص يكتبون... على الأسلوب أن يكون واضحا ونقيا وحيا وسلسا وممتعا، وصحيحا وملائما لموضوعه»[2].

عالج زير ليو سييت Leo spit صلة الأسلوبية باللسانيات قائلا:

(la stylistique a mon sens pouvait faire le pont entre la linguistique et l' histoire littéraire)[3]

سُخرت الأسلوبية للسانيات لدراسة تاريخ الأدب وإنها تعتدّ بها في دراسة النصوص الأدبية باعتمادها المنهج اللساني العلمي، لأن اللسانيات تهب ثمار بحثها للأسلوبية[4]، وحتى نستوضح هذه الفكرة استعضنا برأي ميكائيل ريفاتر الذي شرح التسخير اللساني الأسلوبي قائلا: «لا يتضرر إيحاء الكلمة حتى عندما تبين اللسانيات التاريخية بأن هذا العنصر الغريب عن وضعية اللغة المؤول كتعبير جديد هو في الحقيقة صيغة قديمة أخطاء بالنسبة للساني، وقائع بالنسبة للأسلوبي»[5]، إذن فما يراه اللساني خطأ يشكل فائدة وواقعة أسلوبية بالنسبة إلى الأسلوبي، فالتعارض الحاصل بين الدراستين اللسانية التاريخية والأسلوبية في تأويل كلمة ما استحدث استعمالها بالنظر إلى حقبتها الزمنية، بالنسبة إلى اللسانيات فإن ورود الكلمة في غير سياقها الزمني هو خطأ أما بالنسبة إلى الأسلوبيات فظهور لفظة مخالفة لجملة الملفوظات المستخدمة في سياق تعبيري واحد مألوف هو تضاد بنيوي كسر فيه le contexte stylistique؛ إذ مثلت اللسانيات إلى حدّ ما معينا خصبا في تحديد ماهيات الأسلوب[6]، من حيث تستقي الأسلوبية أدوات تحليلها من اللسانيات بدءا من الثنائية التواشجية اللغة والكلام، لذلك تعدّ «...الأصوات أساس اللغة واللغة أساس الكلام، والكلام أساس الأسلوب والأسلوب هو المظهر الخارجي الذي يجعل الكتابة كتابة أو كتابة حركة برمتها كالأسلوب الأدبي في القرن الرابع للهجرة،

(1) ينظر: بيير قيرو، الأسلوبية.
(2) جورج موليينه، الأسلوبية، ص 107 /106.
(3) Leo spitzerétudes de style précédé de Leo spitzer et la lecture stylistique par jean Starobinski, p54
(4) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب.
(5) ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، ص45.
(6) ينظر عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص75

حيث كان ينهض على أناقة اللغة وانتقاء ألفاظها الناضرة، وعلى تقطيع الكلام إلى جمل منمقة كأنها ألوان زاهية للوحة زيتية بديعة مع العناية إلى كل ذلك بإيقاع الأسلوب»[1].

كثيرا ما تعول الأسلوبية على القارئ وتستند إليه في استنباط الوقائع الأسلوبية من خلال أحكام تكون مؤشرا جوهريا على وجودها، كما تعتبره عنصرا فعالا في إعادة تشكيل النص، إذ إن تناتج حياة النص أسلوبيا واستمرار تأثيراته الأسلوبية منوطة بمتلق حذق، وعلى القارئ من المنظور الأسلوبي أن يحوز على دعامات قرائية تكفل له الانخراط في سياقات النص التعبيرية، لا تعطي البلاغة المتلقي الاهتمام الكبير بالقدر الذي توليه الأسلوبية له، فالقارئ بالنسبة إلي لبلاغة الغربية لا يشكل إلا جانبا من الدراسة عكس المتلقي الذي يعد محور الدراسة الأسلوبية كلها، فهي «تدرس داخل الملفوظ اللساني تلك العناصر المستخدمة لفرض طريقة تفكير المسنن Encodeur على مفكك السنن Décodeur فهي تدرس أي -الأسلوبية - فعل التواصل لا كنتاج خالص لسلسلة لفظية ولكن باعتباره حاملا شخصية المتكلم وملزما لا نتباه المرسل إليه»[2].

لا تتغاضى الأسلوبية عن ردود أفعال القارئ تجاه الرسالة اللسانية، حيث تعتبره منتجا ومساهما فعالا في بلورة الروح الحيوية للنص بلورة استجدادية، لذلك جزم جورج مولينيه بأن الأسلوبية في نهاية الأمر أسلوبية تلق[3]. فمهمة الأسلوبية «هي دراسة اللغة من زاوية نظر مفكك السنن decodeur ... وستصبح الأسلوبية في هذه الحالة علما لسانيا لتأثيرات الإرسالية ولمردودية فعل التواصل ولوظيفة الإكراه التي تمارسها على انتباهنا»[4]، تعكف الأسلوبية على اقتفاء أثر الرسالة الكلامية في المتلقي؛ إذ تهتم بردود أفعاله التي غالبا ماتكون مؤشرا على وجود منبهات أسلوبية داخل النص لا الأخذ بتلك الردود من زاوية أسلوبية ريفاترية قائلة بـ: pas de fumée son feu[5]، أخذا قطعيا، لذلك يشغل المتلقي في الدراسات الأسلوبية الحديثة حيزا وظيفيا إنتاجيا معتبرا حيث تتوقف كل التأثيرات الأسلوبية عليه عبر الأعصر والأزمنة من المفهوم الريفاتري.

لم تول البلاغة الكلاسيكية الغربية العناية بالمتلقي بنفس درجة عناية الأسلوبية به، واهتمامها كان محصورا في غرضها التعليمي؛ أي إعلام المتلقي بواقع ما دون استدعاء العواطف بالإضافة إلى الغرض الأخلاقي المتضمن ويتعلق بتعليم المجتمع في مجال الأخلاق[6]، غير أن القارئ في الدراسة الأسلوبية يتفاعل مع النص وينشغل بأبعاده الدلالية وبتحديد مواطن الحسن والجمال فيه من حيث عنايته بدرجة توتره وبفك إغفالاته التي تعدّ وازعا كفيلا لشدّه والاستحواذ على ذهنه بواسطة ما يحوز عليه من انحرافات

(1) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص95.

(2) ميكائيل ريفاتر، معايير التحليل الأسلوبي، ص66.

(3) جورج مولينيه، الأسلوبية، ص21.

(4) ميكائيل ريفاتر، معايير التحليل الأسلوبي، ص68.

(5) ينظر:

Michael Riffaterre, essais de stylistique structurale, p42

(6) ينظر: هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية،ص26.

مجازية وتناقضات سياقية، حيث يتغلغل القارئ في النص منخرطا في سياقاته التعبيرية المتشعبة بتطلع وشغف كبيرين بغية فك طلاسمه والوصول إلى سماته التي تحفظ للنص خصوصيته وللمؤلف عبقريته، بيد أن المتلقي في البلاغة يستحيل إلى ناقد غير موضوعي «فربما تعصب الناقد وانطلق من موقف مسبق فتعصب على الشاعر جملة وتفصيلا وشنّع عليه، ولم يقرّ له بفضل ولا اعترف له بموهبة شعرية»[1]، بينما تفصل الأسلوبية في بعض جوانبها التحليلية من مثل الأسلوبية البنيوية لمكائيل ريفاتر النص عن مؤلفه[2] il ne reste de l'auteur que le texte، فالأسلوبية بنيوية من حيث طبيعة مادتها[3]، لأنها تدرس العلاقات التراتبية لعناصر النص المكونة لوحدته وبغض الطرف عن أن تكون المقاربة البنيوية مطموسة أو رسمية فإنها تغطي اليوم أوسع حقل في ميدان الأسلوبية[4]، وإن كانت الأسلوبية تعتمد العديد من النظريات بما في ذلك اللسانية أو السيميائية أو البرغماتية، فإنها في نهاية المطاف في نظر منظّريها إجراء تطبيقي[5]، يمارس على مادة ألا هي الخطاب الأدبي.

تزداد الهوة غورا في بعض جوانب المفارقة بين الأسلوبية والبلاغة في كون الأسلوبية أسلوبيتين[6]، أسلوبية متعلقة بالإنتاج الأدبي وتخص المؤلف وعمله الأدبي، وأسلوبية متعلقة بالمتلقي وبوظيفته الاستقرائية لاستكناه مكونات الخطاب وكشف أبعاده الدلالية الخفية، فالأسلوبية تجمع في دراستها بين تحليل الأثر الأدبي وبين تقصي أثره في المتلقي.

تظهر علاقة تواشجية بين البلاغة الأسلوبية من حيث ارتباطهما بالنقد؛ إذ يظهر ارتباط البلاغة بالنقد من حيث إن البلاغة الكلاسيكية علم معياري يرسل الأحكام النقدية التقييمية بواسطة اعتماد البلاغة النقد، فهي تتوسله أثناء تحليلها للنصوص وتحكم على العمل الأدبي بمقتضاه إما بالمدح أو الذم، بينما تتحدد علاقة الأسلوبية بالنقد في كونها وسيلة مسعفة له؛ إذ يحتكم الناقد إلى موضوع الأسلوبية ألا وهو الأسلوب لتحليل مضامين النصوص الأدبية فتصبح الأسلوبية وفق هذا الإجراء مسخرة لخدمة المسار الانتقادي.

يرتكز الناقد على الذوق ويسترشد بفاعليته في تعامله مع النصوص؛ إذ يسهم في تعريتها من كل حلية موضوعية، فتكون الذاتية غالبة عليها لا محالة، بينما تحتكم الأسلوبية في تحليلها للنص الأدبي إلى الذاتية والانطباعية المتوجتين بالموضوعية، وهذا من خلال القراءات النسقية المتكررة لتأكيد الانطباع من خلال شواهد أسلوبية ماثلة «.. يقرأ الناقد العمل، ثم يعيد قراءته، دون إهمال أي جزء منه، إلى أن يألفه لدرجة ينتابه انطباع جمالي – نفسي مهيمن- ويمكن لهذا الانطباع الجمالي النفسي المهيمن أن يسمى -الأثر-... وعندما يصبح هذا الانطباع أكيدا وثابتا وهذا لا يكون إلا بعد قراءات متكررة ومتتالية، ينطلق الناقد في العملية الثانية وهي

(1) عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص248.
(2) ميكائيل ريفاتر،معايير التحليل الأسلوبي، ص47.
(3) ينظر: جورج مولينيه، الأسلوبية، ص86.
(4) ينظر: المرجع نفسه، ص93.
(5) ينظر: المرجع نفسه، ص89.
(6) ينظر: المرجع نفسه، ص21.

تتم كذلك في سلسلة من القراءات المتتالية للنص ذاته: يتعلق الأمر هنا باكتشاف تفصيل شكلي أو عادة لغوية أو خاصية كلامية تلفت انتباه القارئ من حيث هي سمة متكررة في العمل من جهة، ومن حيث هي ترتبط بالانطباع المهيمن»[1]، فمن شأن الذوق والانطباع المعززين بالاختبار والتدقيق أن يزيدا من عمق التحليل والارتقاء بالنص إلى درجاته الفنية القصوى ويحولانه إلى ذاتية مشروعة بعد تنهجيها موضوعيا.

يتجلى هذا المنزع التقديري في توجيه ميكائيل ريفاتر «...الدراسة الأسلوبية في اتجاه المتلقي... لكن بدون جدال (ريفاتر) هو أكثر من ركز وبوضوح تام على هذه النقطة الأساسية ونذكر عنده أهمية التأثير عند القراءة من حيث هو منبه لعمل تمييزي وتفسيري لواقع أدبي»[2].

وما يمكن استخلاصه مما سبق بسطه وتداوله هو أن خيوط العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة تتمتن أحيانا وتضعف أحيانا أخراة، يتبين هذا التأرجح ويتكشف للعيان من حيث الاختلاف الوظيفي والاختلاف الغائي لكلا العلمين، ينصهران تارة وينفصلان أخراة من حيث تساوقهما تاريخيا، ويتقاطعان في موضوع التحليل وهو الخطاب الأدبي، فبالإضافة إلى استعانة الأسلوبية بأدوات التحليل اللساني، تتوخى الأسلوبية المنهج العلمي اللساني الوصفي لوصف خصائص النص المائزة أسلوبيا بحيث تستعير الأسلوبية أدوات البلاغة البيانية لتكشيف وتصنيف سماتها أسلوبويا[3]؛ إذ ما إن تكرس الأسلوبية نفسها لتحليل الخطاب الأدبي تستحيل أدواتها إلى أدوات أسلوبية، ومن الأكيد أن الأسلوبية تسعى إلى الاستقلال بذاتيتها من حيث مراماه الخاص وكعلم يستعيض بأدوات الإجراء اللساني فهي تتسم جوهريا بالبحث اللساني والأدبي يظهر في شكل ترسيخ عميق فعلي[4].

تهتم البلاغة بإنتاج الأثر الذي يتلقفه المتلقي من خلال عنصري التأثر والتأثير، بينما تدرس الأسلوبية سبل وآليات التأثير عن طريق تحليل مسوغاته الإجرائية وإبراز جمالياته، التي تشكل وازعا مغريا للمتلقي فيتأثر بها، تتحدد وظيفة الأسلوبية بدراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من سياقه الإخباري إلى سياق تأثيري جمالي وهي سمة أصلية ثابتة في وظيفيتها، تستعين الأسلوبية بالمنهج الوصفي فتستقي أدوات تحليلها من علم اللسانيات والمتلخصة في الثنائيات: اللغة والكلام، الدال والمدلول، و محوري الاختيار والتركيب؛ إذ إن في اتساق وتناغم هذين المحورين تجسيدا للوظيفة الشعرية، التي تعدّ وظيفة أسلوبية[5] من منظور باعتبار تقاطعهما المشترك في العناية بجمالية اللغة، تتبدى خيوط التشاكل الوظيفي بين الأسلوبية والبلاغة من حيث اعتمادهما الأسلوب في المقام الأول والأخير لتحليل مضامين النصوص الأدبية.

(1) المرجع نفسه، ص75-74.

(2) المرجع نفسه، ص89-88.

(3) يعود المصطلح لرائده عبد المالك مرتاض من خلال كتاب الكتابة من موقع العدم، ص89.

(4) ينظر جورج مولينيه، الأسلوبية، ص85.

(5) ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، ص70.

بيبليوغرافيا

- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، مكتبة الزهراء، القاهرة.(د.ت)
- بيير قيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ط: 2، مركز الإنماء الحضاري، 1994م.
- رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، (د.ت).
- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط:3، النادي الأدبي الثقافي بجدة، (د.ت).
- عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ط: 2، دار القدس العربي وهران الجزائر، 2010م.
- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، الجزائر، (د.ت).
- فتح اللّه أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، 2004م.
- فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة: خالد محمود جمعة، دار الفكر دمشق سوريا، (د.ت).
- ميكائيل ريفاتر، معايير التحليل الأسلوبي، ترجمة: حميد الحمداني، ط:1، دار النجاح الجديدة، البيضاء، 1993م.
- جورج موليينه، الأسلوبية، ترجمة يسام بركة، ط: 1 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان 1999م.
- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، 1999م.
- G, Buffon, discours sur le style, texte de l'édition de l'abbe j. pierre librairiech.Poussielgue, Paris 1896.
- Leo spitzer, études de style , précédé de Leo spitzer et la lecture stylistique par jean Starobinski, Gallimard, 1970.
- Michael riffterre, essais de stylistique structurale, présentation et traduction de Daniel Riffaterre Flammarion Paris France 1971.